وكالة الاستخبارات المركزية... دهليز الفساد و الانحدار.

(خاص بالسمو)

حينما توقفت دواليب مطابع جامعة يال الأمريكية في شهر آذار/مارس 2003م، كان خبر كتاب «إصلاح الاستخبارات» «لوليام أودوم» قد انتشر بين المهتمين، خاصة أولئك المطالبين بإعادة ترتيب البيت الاستخباراتي الأمريكي، وأولئك الذين يعتبرون حدوث عمليات الحادي عشر من أيلول /سبتمبر 2001م دليلاً على فشل استخباراتي ذريع.

ومصطلح الإصلاح لا يعني هنا «التطوير» بقدر ما يعني القضاء على الفساد، ذلك لأن ملف وكالة الاستخبارات المركزية لم يعد يمكنه احتمال المزيد من الصفحات السوداء.

ولعل الإحاطة بكل مظاهر الفاسد في السي أي آي يعد ادعاء باطلاً، كون السرية التي تكتنف هذا الجهاز تجعل من المستحيل الإطلاع على أكثر من زوايا قليلة أصابها الضوء من بين ملايين الزوايا المعتمة الأخرى التي لا مجال إلى الوصول إليها وإلى خباياها.

غير أن الجزء دليل على الكل.. ومن هذا القليل المنكشف من سجل الوكالة، قيامها عام 1973م بتدبير انقلاب في تشيلي ضد سلفادور أليندي، وقتله، وتنصيب عميل الوكالة الجنرال أوغستو بينوشيه مكانه، وقد قتل خلال أحداث هذا الانقلاب ما يزيد على (2500) شخص.

عام 1986م تم الكشف عن تورط للسي أي آي في صفقات سرية لبيع أسلحة لإيران، بترتيب من إدارة رونالد ريغان، وتحويل أموال تلك الصفقة إلى عصابة الكونترا المتمردة ضد حكومة الساندينيستا في نيكاراغوا.

ولم يكن هذا العمل مفتقراً إلى غطاء رسمي، فقد صرح ريغان عام 1985م قائلاً عن متمردين الكونترا: «إنهم إخوتنا، هؤلاء المقاتلون من أجل الحرية، إنهم المعادل الأخلاقي لآبائنا المؤسسين، وللرجال والنساء الشجعان في المقاومة الفرنسية، ونحن لا نستطيع التخلي عنهم، لأن هذا الصراع ليس صراعاً لليمين ضد اليسار، بل هو صراع للحق ضد الظلم».

وفي عام 1983 تولى مانويل أنطونيو نورييغا، وهو تاجر مخدرات وعميل للوكالة، منصب قائد الحرس الوطني في بنما، ورقى نفسه إلى رتبة جنرال، واستولى على الحكم، وكان ذلك كله تحت غض النظر م طرف الوكالة الأمريكية. غير أن أموراً حدثت بعد ذلك قطعت التيار بينه وين السي أي آي، وكانت قصة الذئبة التي تأكل أبناءها. إذ تم اتهامه عام 1986م بالابتزاز وتهريب المخدرات وغسيل أموال

قذرة، وحكمت عليه إحدى المحاكم الأمريكية عام 1992م بالسجن، أربعين سنة.

وفي عام 1994م تم اكتشاف عملية بيع أسرار للدولة إلى الاتحاد السوفييتي، قام بها ضابط من الضباط الكبار في الوكالة المركزية، وهو (ألوريتش إيمز «Alorich Ames») الذي حُكم عليه بالسجن مدى الحياة.

كما انه سنة 1995م أسفرت التحقيقات عن كشف اللثام عن عملية اغتيال شخصين في غواتيمالا، وهما أمريكي صاحب فندق، وناشط يساري غواتيمالي، وقد تمت تصفيتهما بأمر من ضابط غواتيمالي عميل للسي أي آي.

ومنذ مدة كان الكاتب البريطاني (ديفيد أسبورن) ينشر في صحيفة (الأندبندنت) البريطانية غسيل سي أي آي، عبر تسليط الضوء على ملفها الأسود.

ولا يخفى أن الوكالة كثيراً ما تخلف أوضاعاً مأساوية في البلدان التي تستهدفها بعملياتها، ومن ذلك أن اغتيال الوكالة لباتريس لومومبا عام 1960م قد فتح الباب لإعصار الأحداث العاتية التي عصفت بالبلاد قرابة (32) سنة، وذلك عندما آلت مقاليد الحكم إلى الديكتاتورية (جوزيف مويوتو)، أما انقلاب غواتيمالا عام 1954م، والذي هو من صنع الوكالة أيضاً، فقد خلف (35) سنة من الحرب الأهلية التي راح ضحيتها قرابة (150) ألف قتيل.

والحقيقة أن العمليات القذرة لوكالة الاستخبارات المركزية كانت طوال أكثر من خمسة عقود، إما فاشلة، وإما ناجحة وبها تحمله من الخسة والإرهاب، لذلك فقد حمل الكثير من الكتاب. حتى في الولايات المتحدة الأمريكية على أنطونيو جي ميندیز حين أصدر كتابه: «سيد الخدع.. حياتي السرية في وكالة المخابرات المركزية»[1]. (The master of Disguise.. My secret life in the CIA).

وذلك لأن ميندیز الفائز بوسام «النجم الشجاع» في السي أي آي تقديراً لدوره في رسم خطة هروب ستة أمريكيين من طهران عام 1980م. والحائز على لقب أحد (النجوم الخمسين) في عالم الجاسوسية، والحاصل كذلك على جائزة (تريلبلازير). والذي سُمح له بكتابة قصة تاريخه في الوكالة، قد اعتمد أسلوب رسِمْ السي أي آي. على أنها الأسطورة التي كللها النجاح والمهارة طوال عمرها الماضي.. لذلك جاء عمله يحمل الكثير من المبالغة واللاموضوعية.. لذلك ركز الذين انتقدوا كتابه على تاريخ الاخفاقات المريع في الوكالة، ومن ذلك فشل الوكالة في حل أزمة الرهائن الأمريكيين بالسفارة الأمريكية في طهران، وفشلهما في منع هجمات الحادي عشر من أيلول /سبتمبر 2001 وكذا فشلها في الوصول إلى زعماء (تنظيم القاعدة) كما تحب أمريكا تسميته، وفشلها في عملية خليج الخنازير ضد كوبا.

كما فشلت السي أي آي طوال تاريخنا عن حماية (الرجل الأول) في البلاد في الولايات المختلفة للرؤساء ومثلما كان الأمر قبل تأسيسها من اغتيال أو توريط للرئيس من طرف جهات ما لها مصلحة في ذلك، فقد استمر ذلك المسلسل، فقبل ظهور السي أي آي، اغتيل أبراهام لنكولن، الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية، وكان اغتياله عام 1865م، كما اغتيل جميز غارفيلد، الرئيس العشرون، عام 1882م. ووليم ماكنلي، الرئيس الخامس والعشرون، عام 1901م، ونجا تيودور روزفلت، الرئيس السادس والعشرون عام 1912م من محاولة اغتيال جرح فيها..

ونجا فرانكلين روزفلت الرئيس الثاني والثلاثون عام 1933 من محاولة لاغتياله، قتل فيها عمدة شيكاغو آنذاك. هذه الأحداث كانت قبل إنشاء الوكالة المركزية، فهل تغير شيء بعدها؟

لقد تعرض هاري ترومان، الرئيس الثالث والثلاثون، والذي تم تأسيس الوكالة بأمر منه، لمحاولة اغتيال عام 1950م.

واغتيل جون كندي الرئيس الخامس والثلاثون عام 1963م.

وجرت محاولة لاغتيال رونالد ريغان الرئيس الأربعين عام 1981م، ونجا من الموت بأعجوبة بعد إصابته برصاصة في صدره.

ريتشارد نيكسون، الرئيس السابع والثلاثون، لم تستطع الوكالة التغطية على تورّطه مع بعض معاونيه، ومنهم: جون ميتشل (john mitchell)، النائب العام، وجون إيرلشمان (John Ehtlichman) مساعد الرئيس للشؤون الخارجية، وجون دين (John Dean)، مستشار البيت الأبيض، وهـ .ر. هالدومان (H.R. Halbeman) كبير موظفي البيت الأبيض، في فضيحة ووترغيت (Watergate)، وهي الفضيحة المتمثلة في سرقة أشرطة مسموعة من مكتب ووترغيت، مقر الحملة الانتخابية للحزب الديمقراطية (المعارض)، عام 1972م، وكذا التجسس على مكالمات الحزب، وقد انتهت تلك الفضيحة باستقالة نيكسون، من منصبه في 9 آب عام 1974م.

كما لم تستطيع الوكالة احتواء الفضيحة التي أثارتها مونيكا لوينسكي إحدى موظفات البيت الأبيض، عام 1998م، ضد الرئيس الثاني والأربعين بيل كلينتون متهمة إياه بالتحرش الجنسي ضدها، مع إنكار الرئيس لذلك وكذبه تحت القسم خلال المحاكمة المدنية، ثم اعترافه بعد ظهور أدلة الاتهام ووضوحها.

وقد ذهب بعض المتابعين إلى أن العملية كلها من صُنع الوكالة نفسها، وفي كلتا الحالتين، تكون السي أي آي في موقف أحلاهما مر.

وفي كتاب (الشفافية المفقودة.. وكالة الاستخبارات الأمريكية والمخدرات والصحافة)، يفتح المؤلفان، «ألكسندر كوكبيرن»، و«جيفري سانت كلير» الصفحات الداكنة في سجل السي أي آي،

وألكسندر كوكبيرن، صحفي بجريدة «The Nation»، كما يقوم بتحرير مجلة «كونتربانش»، وله عدة مؤلفات، منهن: «نساء الإمبراطورية». و«كونتربانش.. الصحافة تعيد اكتشاف أمريكا». و«خمسة أيام هزت العالم. معركة سياتل «وما بعدها». و«دليل استخدام آل غور».

وفي كتابه المشترك، المذكور «الشفافية المفقود»، يعرض «كوكبيرن» للعلاقة بين السي أي آي وعصابات الكونترا في نيكاراغوا، وكذا علاقة الوكالة بسوق المخدرات في لوس أنجلس ومثل هذه التحالفات السوداء، والتي كشف بعضها الصحفي (جاري ويب) عام 1996م في كتابه «التحالف الأسود»، ليست حوادث قليلة عابرة يمكن التغاضي عنها، بل هي من السمات البارزة والممارسات المعهودة للوكالة.

وقد حاولت المخابرات الأمريكية تحطيم (جاري ويب) مداراً، كونه كشف اللثام عن علاقتها بتجار الكوكايين وإدخاله إلى كاليفورنيا في أوائل الثمانينات.

وقد بدأت المشكلة بين (جاري ويب) والمخابرات المركزية صبيحة يوم الأحد 18 أغسطس 1996م، حينها ذهل سكان مقاطعة سانتا كلارا، لما وردَ في صحيفتهم (سان جوس ميركيري نيوز)، والتي كان جاري ويب يعمل مراسلاً لها.

وتحلق بعضهم حول ما كُتبَ، وسرى الخبر في تلك الصبيحة، وسجلت العدد مبيعات هائلة.

«التحالف الأسود»، هكذا كان عنوان المقال الذي تصدر الصفحة الأولى كاسراً (تابوهاً) كبيراً، وإلى الأسفل كان هناك عنوان فرعي «القصة الكاملة وراء تفتيش المخدرات». وإلى الأسفل من ذلك كله، صورة رجل أسود يدخن المخدرات، مع ظهور شعار بارز في الصورة يحمل الكلمات الثلاث (سونترال أنتيليجوتس آجونس).

في شكل نصف دائرة تعلو رأس صقر ملتفت. وكان ذلك هو شعار السي أي آي ـ كانت جرأة الكاتب أكبر بقليل أو كثير من أن يصدقها القراء، وفي أعداد أيام 18، و 19 و 20 أغسطس 1996م، كان (ويب) يسدد القصة الكاملة للتحالف الأسود بين السي أي آي وكارتل المخدرات المتنفذ حتى في الأسواق الأمريكية..

ووجدت الصحافة الأمريكية طوال أسبوعين بعد ذلك ما تملأ به صفحاتها من الأخذ والرد والنقاش الساخن لهذه القضية.

انقلب المجتمع الأمريكي رأساً على عقب، بفعل الفضيحة التي حرّها ويب، وادعت السي أي آي، أنه هو صانعها، وليس محرّكها فقط، ولجأت الوكالة إلى الإنكار، ثم شنت حملة مسعورة على الصحفي.

وفي منتصف شهر نوفمبر 1996م، تجّمع قرابة (1500) مواطن، في دائرة ووترز في جنوب لوس أنجلس، لينالوا من مدير السي أي آي آنذاك (جون دويتش) طوال ليلة بأكملها..

([1]) الناشر (2000/11) Perennial.